أبو العلاء وبيئته

في أي شيء أطاعها وأي شيء عصاها؟

لإدوار مرقص

من أعضاء المجمع العلمي العربي

كانت بيئة أبي العلاء بيئة تطاحن وتنازع له أول وليس له آخر في العقائد الدينية والمذاهب السياسية والنظريات الاجتماعية، وكان المسلمون منقسمين إلى فرق كثيرة قائمة في وجه أهل السنّة — وهم الفريق الأعظم والأشهر — فمن تلك الفرق الشيعة والمعتزلة والخوارج والقدرية والجبرية والمرجئة والمجسمة والظاهرية . مع أن الاسلام في عصرنا الحاضر منحصر في ثلاث فرق هي السنية والشيعة والوهابية .

وكان الخليفة العباسي السابع وهو المأمون ابن الخليفة هرون الرشيد علاّمة الخلفاء غير مدافع يطلق العنان لكل واحد من خواص رعيته في ميادين التفكير والبحث والاعتقاد بشأن الدين والعلم والفلسفة . فلما توفي وأسندت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله نهج منهجه في هذا الاطلاق وهذا التسامح ، ثم أفضت الخلافة إلى ابن المعتصم الواثق بالله، والمظنون أن منهجه في ذلك كان وسطاً بين الشدة واللين ، ثم أعقبه أخوه جعفر المتوكل على الله فشدد النكير والعقاب لكل من خالف أهل السنة منحرفاً نحو التعطيل أو الزندقة وكذلك كان شأن من جاءوا بعده من الخلفاء في التشديد والاستنكار . ومن ثمّ أصبح المفكرون بغير ما يرضي الدولة وسواد الأمة، يستترون ويتحجبون . واتفق فريق من كبار المفكرين قبل نبوغ أبي العلاء بسبعين أو ثمانين سنة على آراء فلسفية لها تأثير عظيم في عقائد الدين وسوسه وألفوا في البصرة جمعية منهم سموها جمعية إخوان الصفا وأصدروا على التوالي نيفاً وخمسين بحثاً هي المسماة في أدبنا العربي برسائل إخوان الصفا دسوها بين الناس بطرائق خفية وكانوا يزعمون أن الشريعة دنستها الجهالات لأنها أدخلت عليها ما ليس منها . وإنما يمكن إصلاحها وردها إلى الطهارة باستنجاد الفلسفة اليونانية بما لا يخالف جوهر الدين الاسلامي من هذه الفلسفة . وفي رسائلهم فندوا وعابوا أشياء كثيرة في السياسة . وقد وافقهم على آرائهم

ومذهبهم فريق من عامة الناس وخالفهم فيه فريق آخر. ولا غرو فإن مطالبهم ومباحثهم المويعة من جهة الذات الالهية والقضاء والقدر والثواب والعقاب وقدم العالم وحدوثه وما جاور هذه الموضوعات كانت وما زالت مثار الجدل والمناظرة والحيرة والشك من أوائل نشأة العلم والفلسفة إلى أيامنا الحاضرة. ومن علماء تلك المؤسسة الفلسفية جمعية إخوان الصفا الذين اتصلت بنا أسماؤهم زيد بن رفاعة ومحمد البستي وأبو الحسن وأبو أحمد. وكان أصحابها يكتمون أسماءهم خوفاً من أن يصيبهم أذى أو ضيم من قبل الدولة أو قبل فئات من الشعب.

فلما ظهر أبو العلاء وفي رأسه عقل جبار وبين جنبيه نفس جريئة طموح واطلع على ذلك المعترك الديني العلمي الفلسفي في ميادين الفرق الدينية وفي جمعية إخوان الصفا وفي اختلاف نظريات العمران والاجتماع والسياسة ـ استهوته هذه المباحث وكان لما عليه وقع بعيد الأثر فجعلها دأبه وديدنه وبدرت منه بوادر أقوال وآراء يستنكرها الأكثرون. ومما كان أسرع عودته عنها إلى ما نشأ عليه في حجر أبويه من عقائد ومبادئ. وسأورد ذلك بإيضاح.

ومرَّ أبو العلاء في إحدى رحلاته بمدينتنا اللاذقية هذه وكانت أعظم وأجل بكثير مما هي عليه الآن. وفي أثناء إقامته هنا ـ ولا أعلم مدتها ـ عرف راهباً يونانياً من أهل الذكاء والعلم وهو من رهبان دير مار جرجس المبني على هضبة القاروس، وإلى جانب الدير كنيسة باسم هذا القديس الشهيد سماها الناس حينئذٍ «كنيسة نصف البلد» وهي تسمية تدل دلالة واضحة على عظم المدينة واتساعها في عصر أبي العلاء. والظاهر أن الراهب اليوناني كان يحسن أيضاً التعبير باللسان العربي، فكلفه أبو العلاء أن يطلعه على أشياء في الفلسفة اليونانية ففعل، ولا نعلم أي ناحية فلسفية اختارها أبو العلاء: أفلسفة ما وراء المادة أم فلسفة القوى العقلية أم فلسفة الاجتماع ونظم العمران أم ماذا؟ وذكر أبو العلاء اللاذقية ذكراً كنا نود وروده بغير السياق الذي اختاره. قال:

في اللاذقية ضجّة ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح
كلٌّ يعظّمُ دينه يا ليت شعري ما الصحيح

ولو كنت إلى جانبه يوم تعلق بهذه الأبيات لقلت له: رويدك يا أستاذنا وموضع حبنا وإكرامنا. إن ضجة الخلاف والمشادة لم تقم قط بين أحمد والمسيح بل بين تبّاع هذا وتباع ذاك، فقد أوصلتهم طرق التعليل والتأويل والاطراد والتدرج إلى اختلافات وجاوز

صحيحة مع بقاء أحمد والمسيح على اتفاق تام في جوهر العقيدة والمبدإ . وكيف يمكن أن يقع اختلاف جدي ونفور بين رجال الله وأصفيائه عزّ وجلّ ؟

ولما مرّ أبو العلاء بطرابلس وكانت فيها مكتبة عامرة كلف بعض الناس أن يقرأ له شيئاً من محتوياتها على حسب اختيار المكلف ، ففعل وأضاف ما استمرأه ذهنه منها إلى ما عنده من علم وأدب .

***

وكما أثرت في أبي العلاء بيئته باستدراجه إلى قضايا الدين الجدلية أثرت فيه كذلك باستدراجه إلى زخرف الكلام وتزويقه بالبدائع اللفظية من جناس وتقفية ولزوم ما لا يلزم مع ما يجاور هذه الصور من طول الاستطرادات وعبارات الدعاء والمجاملة ، فإن أدبه نظماً ونثراً محلى إلى حد البطنة بهذه الأغذية وبينها ما لا يخلو من قبول ودسم ومنه ما هو تافه تماماً ليس له طعم ولا يرجى من وراء مضغه وتمثيله مدد وعافية . وكذلك كان مذهب أدباء ذلك العصر وما تقدمه وتخلف عنه . ومن مشاهير أصحاب هذه الطريقة أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وأبو منصور الثعالبي والوزير المهلبي والحريري والصابيء وابن العميد والصاحب بن عباد . وكل هؤلاء كان إنشاؤهم ناصعاً جيلاً دالاً على مقدرة عجيبة وذخيرة وافرة من أوضاع اللغة ومجازاتها . ولكننا لا نشك أنهم كانهم وبينهم أبو العلاء المعري لو لم يتقيدوا بهذه الطريقة التزويقية لجاء إنشاؤهم أجل وأمتن ولما عابه ما في بعضه من أثر التكلف والاعنات والاسهاب الممل . ونريد بذلك الاشارة إلى طريقة إنشائية غير طريقتهم، طريقة الحرص على الرشاقة في مواضعها والجزالة في مواضعها بغير تسجيع وتصريع وترصيع إلا ما جاء من ذلك عفو الخاطر . هكذا كان مذهب فحول إنشاء آخرين نبغوا في صدر الاسلام قبل من أوردنا أسماءهم ومنهم عبد الحميد الكاتب وعمرو بن مسعدة الكاتب والجاحظ وابن المقفع وزياد بن أبيه والمهلب بن أبي صفرة والحجاج بن يوسف الثقفي . وأما من ظهروا بعد أولئك فمن أشهرهم ابن خلدون وجلال الدين السيوطي . وبديهي أن ديوان اللزوميات لأبي العلاء لم يظهر على تلك الصورة إلاّ مجاراة لذلك المذهب في البديع اللفظي .

وأطاع أبو العلاء أيضاً بيئته في مظهر آخر من مظاهر الأدب العربي لم يكن عصره يستهجنه أو يستغربه ولا ما تقدمه وتخلف عنه من عصور القدماء والمولدين . والمراد به باب

المدح والفخر، فقد دخله أبو العلاء صريحاً فصيحاً . وأظن ظناً راجحاً يقرب من اليقين أنه تعمد الافتخار بنفسه رداً ودحضاً لما كان يلمحه من مساعي خصومه وحساده وفلتات أقلامهم وألسنتهم ضده . وكان يعلم أن بين رجال العلم والأدب جمهوراً ينتصرون له ويشدون أزره إذا رأوا ضرورة لمؤازرته . ولولا هذا الحافز الذي يعذره عليه كل عاقل عادل لما خرج قيد شبر عن شرط الدعة والتواضع كما هو المعهود في أمثاله من العلماء الأثبات .

ومما يروى عن أفلاطون الحكيم اليوناني الشهير تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو أنه قال : قضيت حياتي في طلب العلم والشيء الوحيد الذي علمته إلى اليوم هو أني لا أعلم شيئاً . ويروى عن أبي عبيدة العلامة الراوية العربي في صدر الدولة العباسية أن شاباً سأله مسألة لغوية فقال له أبو عبيدة : لا أدري . فارتاب الشاب في صدق جوابه وظنه يحاول أن يضن عليه بالفائدة ، فقال له : كيف تقول في هذه المسألة لا أدري وإليك تضرب آباط الإبل من مشارق البلاد ومغاربها انتجاعاً لفضلك ، وكان في أبي عبيدة حدة طبع وحدة لسان فأجابه ويحك لو كان لأمك بعر بقدر ما لا أدري لاستغنت . وكان من العاملين في دار الخلافة ببغداد على عهد الخليفة المأمون عالم وقور طاعن في السن ، فسأله أحدهم مسألة أدبية أو فقهية فقال : لا أدري ، فاستغرب الجواب وقال له : إن أمير المؤمنين يجري عليك من الخيرات والأرزاق كل شهر جراية عالمين ثم تسأل سؤالاً واحداً فتقول لا أدري ، والله إن هذا لمن العجب العجاب . فأجابه بلين وتؤدة : « يا بني إن أمير المؤمنين أيده الله إنما يجري علي خيراته جزاء لي على ما أدري ولو كانت عطاياه جزاء على ما لا أدري لنفدت خزائنه قبل أن ينفد جانب يسير مما لا أدري » ولما بلغت مقالته المأمون قال : هذا هو العالم الحق . ثم زاد في إكرامه ورعايته .

هذا شأن العلماء الناضجين في التواضع وإنكار الذات ، ولا شك أن أبا العلاء أحد الممتازين بينهم . ولكن هؤلاء المتواضعين إذا تصدى متصد أن ينتقصهم أو يهينهم ظهرت فيهم أنفة وشمم لقمع كل عدو ومفتر وكبح جماحه . وإلى هذا الناموس الاجتماعي أشار العالم بقوله :

إن المعلم والطبيب كليهما   لا ينفعان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن أهنت طبيبه   واصبر لجهلك إن أهنت معلما

ولعل هذا الناموس الاجتماعي فكر فيه أب عاقل حين أوصى ابنه وقال له في جملة وصيته : « يا بني لا تمار العلماء فيحقروك » والمماراة هي سوء الجدل أو إدخال العناد

والمماحكة في الجدل . ولا يخرج عن هذا الصدد ما رواه بعضهم من أن شاباً مغروراً بنفسه كان يعمل في حقل الأدب فنظم أبياتاً وأسمعها أحد رجال الدين واللغة فطرق أذن العالم منها لفظ استنكره وسأل الناظم عنه سؤال متعجب : ما الذي تريد به ؟ فأجابه الشاب مكابراً « هذا حرف في العربية لم يبلغك » فابتسم الشيخ وقال له : « يا ابن أخي لا خير لك في علم يبلغني منها » يريد أنه لا يفوته منها شيء .

وهذه الدعوى ما كان ليظهرها لو لم يلجئه إليها الشاب بغروره وغطرسته . أفلا يظن القارىء مثلي أن أمثال هذه الدواعي هي التي ساقت أبا العلاء إلى تمدحه وافتخاره بنفسه ولا سيما في قصيدة لامية له مشهورة ؟ ومنها قوله :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل
أعندي وقد مارست كل خفية يصدق واش أو يخيب سائل
يفاخر يوم في أمسي تطولا وتحسد أسحاري علي أصائل
وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

إلى أن يقول في أواخر القصيدة بلهجة حادة تدل على التعريض مع منتهى السخط والاشمئزاز مما يؤيد رأينا في الدواعي التي دعت الناظم إلى هذا التمدح والافتخار :

إذا باهت الأرض السماء سفاهة وعيّر قساً بالفهاهة باقلُ
وقال السهى للشمس أنت ضئيلة وقال الدجى للصبح لونك حائل
فياموتُ زر إن الحياة ذميمة ويا نفسُ جدّي إن دهرك هازلُ

ثارت ثائرة أبي العلاء لذلك الوضع المعكوس في المجتمع البشري لعهده مما أشار إليه بهذه الاستعارات البليغة، فما قول القراء فيه رحمه الله وغفر لنا جميعاً لو أدرك عهدنا الحاضر وشاهد ما نشاهد وأحس بما نحس به من عجائب الشواذ وغرائب التناقضات.

***

ومن تأثير بيئة أبي العلاء عليه ما رآه حواليه من مفاسد الناس وتفاقم ولؤمهم فأساء ظنه فيهم وفي الدنيا التي احتوتهم، ومن ثم مما فيه خلق التشاؤم وأعراض السوداوية وكانا قد اختمرا في نفسه بما أصابه من العمى في طفولته ثم بفقده أبويه، ولما فقد الوالد منهما لم يكن الولد إلاّ صبيّاً قاصراً في الرابعة عشرة من عمره . وأما أمه فتوفيت وقد نيف على الثلاثين ولأجلها أسرع في ترك بغداد عائداً إلى المعرة لكي يودعها قبل موتها فلم يبلغها إلاّ

وهي في قبرها . كل هذه الحوادث المؤلمة توالت على أبي العلاء فطبعت أقواله بطابع الكآبة البالغة حد اليأس .

فرغنا من أهم ما أثرت به البيئة في أبي العلاء ، وحان لنا أن نلتفت إلى ما عصاها فيه :

كان الغالب على بيئة أبي العلاء رغد العيشة ورفاهيتها ومباهاة الأقران بكثير من كماليات الحياة . وهذه المظاهر الباسمة الخلابة لم تجد لها أصغر موقع ولا أقل متجسم في نفس شاعرنا العظيم وفيلسوفنا الحقيقي بل تنكب طريقها واكتفى له بمستغل له صغير ورثه عن أبيه لا يزيد دخله السنوي على ثلاثين ديناراً عما يساوي بالتقريب ٣٥ ليرة ذهبية من نقود أيامنا الحاضرة وهذا المبلغ كان ينفقه على نفسه وعلى خادم له خاص في معيشة بسيطة مأكلاً ومشرباً وملبساً ومأوى ، وكان يغلب على طعامه العدس المطبوخ وقد تحمل تحمّل الصوم بعد ما اجتاز الأربعين من العمر عاملاً برأي فلسفي كان يقول به رهط شائع يومئذ بين فلاسفة الهند ومؤداه أن الانسان حيوان ناطق لا يجوز له سلب حياة غيره لكي يغذي حياته ، بل يجدر به أن يكتفي بالثمار والنبات .

ولعل أصدق صورة ذهنية تنطبق على أبي العلاء في استقامته وثقته بنفسه واحتياطه من شرور الناس أبيات الطغرائي في لاميته المشهورة وهي هذه :

وشان صدقك بين الناس كذبهم ... وهل يطابق معوجٌ بمعتدل
أعدى عدوك أدنى من وثقت به ... فحاذر الناس واصحبهم على دخل
وإنما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعوّل في الدنيا على رجل

وأوضح خلة عصى بها أبو العلاء بيئته هي الأنفة وعزة النفس، وكانت البيئة عنائة في صميمها وزواياها برجال التملق والتزلف والنفاق استدراراً للمال من أيدي الملوك والأمراء والأعيان والأغنياء ، وهذه الظاهرة أخت شقيقة لما ذكرناه من قناعته ورضاه بدطف العيش، ومما يروقنا ذكره ويعزينا بعض التعزية عن مفاسد الزمان وأهل الزمان أن جماعة من رجالات العرب كانوا على هذه الشاكلة ومنهم الامام الشافعي القائل :

عليَّ ثياب لو تباع جميعها ... بفلس لكان الفلس منهنَّ أكثرا
وفيهنَّ نفس لو تقاس بمثلها ... نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

والقاضي أبو الحسن عبد العزيز الجرجاني وهو القائل :

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موطن الذل أحجما

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وفي موضوع الإباء وعزة النفس تحضرني خاطرة سديدة من خواطر الأدب الفرنسي وهي للكاتب الفرنسي لاروشفيكو إذا صدقتني الذاكرة . قال : « ليس من الويل أن تحسن إلى لئيم فيبخسك حقك ويجحد معروفك . ولكن الويل كل الويل أن تحتاج إلى لئيم يسمنك إحساناً خفيفاً ثم يمن عليك طول حياتك منّاً لا تحمله أرض ولا سماء »

***

بقي علينا أن نذكر شيمة واحدة من الشيم الكريمة التي خالف بها أبو العلاء بيئته بل خالف معظم ما عهدناه من البشر في كل مكان وكل زمان وأظن هذه الشيمة تفوق جميع الشيم في نبلها وسمو قدرها ، وأريد بها شيمة الإثرة أو إنكار الذات . فإن أبا العلاء على ما هو عليه من ضعف ثقته بالناس وشدة استيائه من مفاسدهم كان قلبه الكبير ينطوي على ود صحيح لهم وإرادة كل خير وبركة تشملهم، ومما يدل على شفقته المتطرفة عدم استحلاله لحم طير أو حيوان أو سمك لأجل تغذية الإنسان . ثم إذا رأينا الأمير أبا فراس الحمداني يقول ولو في معرض نسيب وتشبيب :

معللتي بالوصل والموت دونه ... إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر

وبهاء الدين زهيراً المصري يقول :

وإذا ما مت من ظمإ ... لا جرى من بعدي النيل

رأينا أبا العلاء المعري، وكان عصره بين عصريهما يقول :

ولو أني حبيت الخلد فرداً ... لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت علي ولا بأرضي ... سحائب ليس تنتظم البلادا

ومما لا شك فيه أن أبا العلاء لو رزقه الله ثروة واسعة ومع نفوذه الأدبي سطوة حكم رسمي جاء بالإنسان الكثير من أعمال الخير ومشروعات الإصلاح ؛ وهذه منية تشعرنا بصدق الشعور في قول من قال :

كفى حزناً أن الكريم مقتر ... عليه ولا معروف عند بخيل

اللاذقية (سورية)